٢٢ـ حَمَاة وَمَعَرّة النعمَان

في سنة ١٩٢٥ زرت معرة النعمان لأول مرة. وقد كتبت بعد ذلك بسنوات أصف انطباعي قلت:

«وأنا في هذه الأفكار إذا بالسيارة تقف أمام بيوت عدة، لا هي بالقليلة فتكون قرية ولا هي بالكثيرة فتكون مدينة، ولكنها أمر بين الأمرين. وحسبت ان السيارة أوقفت لتعالج. ولكنني لم ألبث ان أدركت خطأي لما ذكر الركب انها المعرة ـ معرة النعمان. فعدت الى دنيا الناس، وعجب لهذه الحياة التي تنقلك من عالم الفكر مع المتنبي، فتجد نفسك في عالم الناس ولكن في بلدة المعري.

«وكدنا لا نعرف أنفسنا. فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء. ولم يكن من المتيسر إزالتها البتة، فاكتفينا بإزالة القليل منها على النحو الذي تيسر لنا، وسرنا نحاول التعرف إلى الجو الذي عاش فيه أبو العلاء. فكان أول ما طالعنا منه قبر نور الدين الشهيد، وفي مكان يعرف باسم مدرسة أبي العلاء. والمدرسة هذه كتاب في مكان قديم متهدم ونور الدين الذي أحيا من دنيا الاسلام يوم ان تصدعت ما أحيا، ينظر الناس الى قبره فلا يعرفون أقبر شخص عادي هو أم قبر هذا الذي هيأ لصلاح الدين ان يضرب الصليبيين.

«وكان بي شوق الى قبر المعري. فقد أعجبني من قبل ذلك الذي تساوى عنده صوت النعيّ وصوت البشير، فذهبنا لزيارة «مولانا أبو العلاء». مولانا؟ نعم لقد أصبح المعري في بلده ولياً من أولياء الله، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر، وتعلو مكان الرأس منه عمة، ويتقرب الناس الى الله بقراءة الفاتحة في مقامه، ويربط قطع من القماش البالي على باب المكان الصغير وطاقاته. وكأن رهين المحبسين في حياته أبى إلا أن يكون له بعد وفاته محبس ثالث، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة. وقد تلطف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما:

«قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نقية صاغها المولى من النطف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فارجعها رحمة منه إلى الصدف»[1].

ومعرة النعمان والقرى المحيطة بها على ما وصفها ابن حوقل «اعذاء ليس

بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ... وشربهم من ماء السماء. وهي مدينة كثيرة الخير والسعة في التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم»[٢].

أما حماة فمدينة نزهة خيّرة يرويها نهر العاصي الذي يخترقها فتداعبه نواعيرها فيغيظها فتعن وتئن ولا من يرق لها.

حماة ومعرة النعمان، مثل غيرهما من مدن تلك النواحي في شمال سورية، قديمتا العهد، وقد عرفتا عزاً ورفعة في غير حقبة من تاريخهما. ولذلك لا نستغرب ان تتطاول الاسطورة عليهما. فقد روى ناصري خسرو الذي زار المعرة سنة ٤٢٨ [١٠٣٧] قال: «وبعد مسيرة ستة فراسخ اخرى بلغنا معرة النعمان، وهي مدينة عامرة ولها سور مبني. وقد رأيت على بابها عموداً من الحجر عليه كتابة غير عربية فسألت: ما هذا؟ فقيل انه طلسم العقرب، حتى لا يكون في هذه المدينة عقرب أبداً، ولا يأتي اليها، وإذا احضر من الخارج واطلق بها فإنه يهرب ولا يدخلها. وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع»[٣].

والرقعة التي تقع فيها البلدتان رقعة خصبة غنية وقد تضخم الواحدة من البلدتين فتكون مدينة، ثم يأتيها وقت تصغر فيه فتكون قرية، ولكن يظل الخير العميم هو صفة المنطقة اجمالاً. ولكل منهما على التاريخ العربي فضل. ففي المعرة عاش نابغة العرب ابو العلاء المعري، ودفن نور الدين الشهيد، وحماة منحت التاريخ العربي ياقوت الجغرافي وابا الفداء الملك المؤرخ الجغرافي، فمجال المفاخرة امامها متسع.

وصف المعري بلده في رسائله فقال عنها: «اسمها طيره، وعند الله ترجى الخيرة، المورد بها محتبس، وظاهر ترابها في الصيف يبس، ليس لها ماء جار، ولا تغرس بها غرائب الأشجار، وإذا ابرز لأهلها ذبح، يؤمل به لديهم الربح، تحسبه صبغ بخطر، فكأنما يرفق به هلال الفطر، وقد يجيئها وقت يكون فيه جدي المعز في العزّة كجدي الفرقد، ومثل حمل الكواكب حمل النقد، ويبكر فقيرها على الهداية، قبل ابن الفرخين ابن دايه، حتى يقف ببائع الرسل فكأنما وقف برضوان، يستوهيه ماء الحيوان، فان سبقه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً، ولا يجد سهمه صائباً، فما الظن بمحلة لا تسمح بدر المخزاب، لو نزلها ابن خنزابة لما قدر على الخنزاب، نابت طاب مجاجه، وهاتف نشر دوّاجه، اما النابت فاذا نبذ عند غيرنا العبر، حسب ها هنا سبائك التبر، واما الصائح فإذا طلب العليل، عدم كعدم الخليل»[٤].

ومع ان صاحب الدار يجب ان يعرف ما بها فان المعري قد يكون تجنى على بلدته. وإلا فكيف نوفق بين هذا الذي قاله وبين وصف ناصري خسرو، وهو معاصر لأبي العلاء، الذي قال عنها لما زارها: «ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران. وقد بني مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون اليه من اي جانب

يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة. وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب»[٥].

وما دمنا مع ناصري خسرو، فلنرافقه في زيارته لحماة المدينة التي أعجب بها أيضاً. وناصري خسرو دقيق الملاحظة رقيق الشعور. وقد ذكر ان حماة مدينة جميلة عامرة على شاطىء نهر العاصي. ولناصري خسرو حديث عن المعري يعطينا صورة غير الصورة المألوفة التي تركها لنا مؤرخو الأدب عن الرجل. فقد قال الرحّالة الفارسي عنه: «وكان بهذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعري. وهو حاكمها. وكان واسع الثراء عنده كثير من العبيد، وكأن أهل البلد كله خدم له. أما هو فقد تزهد، فلبس الكليم، واعتكف في البيت، وكان قوته نصف منّ من خبز الشعير، لا يأكل غيره. وقد سمعت أن باب سرايه مفتوح دائماً وان نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة ولا يرجعون إليه إلا في الأمور الهامة، وهو لا يمنع نعمته أحداً، يصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه مطلقاً بأمر دنيوي. وقد سما المعري في الشعر والأدب الى حد أن أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأنه لم يكن من يدانيه في هذا العصر ولا يكون. وقد وضع كتاباً سماه «الفصول والغايات»، ذكر به كلمات مرموزة وأمثالاً في لفظ فصيح عجيب، بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه، ولا يفهمه إلا من يقرأه عليه. ويجلس حوله، دائماً، أكثر من مائتي رجل، يحضرون من الأطراف، يقرأون عليه الأدب والشعر. وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت شعر. سأله رجل: لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك؟ فأجاب: إني لا أملك أكثر مما يقيم أودي. وكان هذا الرجل حياً وأنا هناك»[٦].

وأخبار المعري وشعره وأدبه وفلسفته شغلت الناس وملأت المجلدات، ولذلك لن نعرض لذلك هنا. إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل قصتين لطيفتين عن هذا الرجل المفكر.

فقد روي انه «جاءت امرأة اسمها جامع يوم الجمعة الى مسجد المعرة فشكت الى الناس ان أناساً تعرّضوا لها وأرادوها بمكروه، فانتصر الناس لها، وهدموا البيت، وأتلفوا ما فيه، فقال أبو العلاء في ذلك من قصيدة طويلة:

أتت جامع يوم العروبة جامعاً ... تقص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها ... لخلت سماء الله تمطر جمرها
فهدّوا بناء كان يؤوي فناؤه ... فواجر ألقت للفواحش خمرها[٧]

أما القصة الثانية فبطلاها صالح بن مرداس صاحب حلب وأبو العلاء المعري. وذلك ان «صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرة ونقم عليهم. فجاء المعرة وخيم بظاهرها سنة ٤١٧ [١٠٢٥]، واعتقل من أعيانها سبعين رجلاً. ففزع أهل المعرة الى أبي العلاء وسألوه تلافي الأمر. فخرج هذا الشيخ القصير الذي ترى الى

صالح، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال: «الأمير أطال الله بقاءه كالنهار المائع، قاظ وسطه وطاب ابراده، او كالسيف القاطع لان متنه وخشن حداه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)». فقال صالح: «لا تثريب عليكم اليوم. قد وهبت لك المعرة وأهلها». وقوض خيامه ورحل. فقال أبو العلاء:

نجى المعرة من براثن صالح ... رب يفرج كل أمر معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة ... الله ألحفهم جناح تفضل[٨]

وقد أشار ابو العلاء الى هذه الحادثة في شعر له قال:

فلما مضى العمر الا الأقل ... وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح ... وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام ... واسمه منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد[٩]

وللمعري شعر جميل تشوق فيه الى بلده وهو في بغداد قال:

تمنيت ان الخمر حلت لنشوة ... تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل اني بالعراق على شفا ... رزي الاماني لا أنيس ولا مال
وماء بلادي كان انجع مشربا ... ولو ان ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني ان فاتني بك سابق ... من الدهر فلينعم لساكنك البال»[١٠].

ويمر الزمن فيطوي المعري وابن مرداس، ويقيم ناساً اخرين. وتدور الدنيا فاذا بالبلاد تتعرض لهجمات من الغرب والشرق، واذا حماة والمعرة وشيزر وحمص في خط الدفاع والهجوم. ومعنى هذا تقلص مساحة المدينة، واقتصارها على الرقعة الدائر السور بها، كي يسهل الدفاع عنها وحراستها. وهكذا كانت حالها لما زارها ابن جبير الرحالة المغربي فقال عنها:

«حماة حماها الله مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحبة للزمان، غير فسيحة الفناء، ولا رائقة البناء اقطارها مضمومه، وديارها مركومه، لا يهشّ البصر اليها، عند الاطلال عليها، كأنها تكنّ بهجتها وتخفيها، فتجد حسنها كامناً فيها، حتى إذا جست خلالها، ونقّرت ظلالها، ابصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه اساليبه، وتتناظر بشطيه دواليبه، قد انتظمت طرّتيه، بساتين تتهدّل اغصانها عليه، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه، ينسرب في ظلالها، وينساب على سمت اعتدالها، وباحد شطّيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتاً عدّة يخترق الماء من احد دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل اثر أذى فيها، وعلى شطّه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس اليه،

وتتقيد الابصار لديه، وبإزاء ممرّ النهر بجوفي المدينة قلعة حلبيّة الوضع، وان كانت دونها في الحصانة والمنع، سرّب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها لا تخاف الصدى، ولا تتهيب مرام العدى، وموضوع هذه المدينة في وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطلّ والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العليّ الجبلي ويطيف بها وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور وعلى النهر جسر كبير معقود بصمّ الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها، وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ لدخول المدينة. وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم، بديع الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير. وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الاعناب وفيه المزارع والمحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي»[١١].

وقد ابتعد الخطر عنها أيام كانت موطن ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان، فاتسعت أرباضها قليلاً، فجاء وصفه مطابقاً لواقعها أيامه اي في أواسط القرن السابع (الثالث عشر). قال:

«وحماة مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، وبظاهر السور حاضر كبير جداً، فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي، عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها وتصب الى بركة جامعها، ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لأنه منحط عن المدينة، ويسمون المسوّر السوق الأعلى، وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها واتقان عمارتها وحفر خندقها نحو مائة ذراع وأكثر للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن يوب، وهي مدينة قديمة جاهلية»[١٢].

وأبو الفدا اسماعيل الحموي ملك تولى إدارة هذه الولاية في أواسط القرن الثامن (الرابع عشر)، وهو الى ذلك مؤرخ ترك لنا تاريخه المسمى المختصر في أخبار البشر. ويعتبر أبو الفدا في مقدمة جغرافيي العرب إطلاقاً. وكتابه تقويم البلدان

منجم كبير للمعرفة الجغرافية في أيامه. وقد قال عن مدينته ما يلي:

«حماة مدينة أولية وبلدة قديمة وهي من أنزه البلاد الشامية. والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها. ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة. وفي داخلها الارحية على الماء. وبها نواعير على العاصي تسقي اكثر بساتينها. ويدخل منها الماء الى كثير من دورها»[١٣]. «ونهر حماة يسمى نهر الارنط والنهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال. ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الأراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد. ونهر حماة لا يسقي إلا بنواعير تنزع منه الماء»[١٤].

وإذا كانت حماة والمعرة قدمتا لنا هذا العدد من كبار الرجال في القدم، فقد أعطتا رجالاً كباراً في الزمن الحديث. فبدر الدين الحامد شاعر كبير. وقد قال يصف ناعورة حماة:

الـدهـر بـيـن يـديـك دان ... عـجـبـاً لشـأنك اي شـان
أفنى الجـبـال ومـالـه ... بـك ولـيـدتـه يـدان
أترى أخـذت على الزمـا ... ن وصـرفـه عـهـد الأمـان
عـاصـيك يغـسل مطرفـيـ ... ـك وأنـت فـي ظـل الـجـنـان
ويـزورك الغـر الحـسـا ... ن فـأكـرمي مـثـوى الحـسـان
تتـمـتـعـين بقـربهن ... وتضـحـكين من الزمـان
وأراك تـشـكـيـن الـغـرا ... م وأنـت خـافـقـة الجنان
عـيناك من قـبل المسـيح ... وأمـه نضـاحـتـان
تـتـرنـمـيـن ترنم الـ ... ـولهـان يقـتـله الحنان
وترددين صـدى العـصـو ... ر وسـرك المـاضي مـصـان
مـا أنـت يـا لـدة الخـلـو ... د؟ تكلمي؟ فـالوقت حـان

الهوامش

(١) لمحات من تاريخ العرب، ص ١٢١ـ١٢٢.
(٢) ابن حوقل، ص ١٧٨.
(٣) سفرنامه، ص ١١.
(٤) المشرق، ج ١ (١٩٢٣)، ص ٥٥٧.
(٥) سفرنامه، ص ١١.
(٦) نفس المكان، ص ١١ـ١٢.
(٧) لمحات من تاريخ العرب، ص ١٢٥.

(٨) نفس المكان، ص ١٢٦.
(٩) نفس المكان، ص ١٢٦.
(١٠) نفس المكان، ص ١٢٤.
(١١) ابن جبير، ٢٥٥ـ٢٥٧.
(١٢) ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٠٠.
(١٣) أبو الفدا، كتاب تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠، ص ٢٧٣.
(١٤) نفس المكان، ص ٤٩.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية